

العولمة وثقافة الموت

Globalization and the culture of death

أ. د. بوبكر الجبالي *¹، جامعة حسيبة بن بو علي الشلف، شعبة الفلسفة boubakerdjilali @ yahoo.fr

تاريخ النشر: 2023/05./01

تاريخ القبول: 2023 /05./01..

تاريخ الإرسال: 2023./04/17

ملخص:

تقوم إيديولوجيا العولمة على فلسفة اليمين الليبرالي، الذي تلتقي فيها فكرة نهاية التاريخ مع فكرة صدام الحضارات مع فكرة العصور الوسطى الجديدة، هدفها فرض النموذج الثقافي والسياسي والاقتصادي الأوروبي الغربي والأمريكي على العالم أجمع، لكن العولمة بهذه الفلسفة وبممارساتها بلغت من التطرف الإيديولوجي الليبرالي ومن الاستبداد السياسي ومن الفساد الاقتصادي وغيره ما جعلها في قفص الاتهام

obsolescence and renewal of concepts of this field which needs to be connected with deep philosophical theorisation in terms of growing tendencies towards transforming library name into information equivalent in western universities. The study recommends updating LIS curriculum to enable criticising theories and other various philosophical doctrines in order to develop critical thinking skills to generate new scientific laws and theories in line with rapid advances in technological environments.

Keywords: critical thinking; library science- research methods; information science- education; knowledge, sociology of; science-philosophy.

توطئة (مقدمة):

شهدت الإنسانية في بداية العصر الحديث تحولات بارزة في حياتها الفكرية والثقافية والعلمية، ومن ثم شملت باقي مجالات الحياة، فالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية عامة، وكانت تلك التحولات قد مسّت بقوة مجال العمل من حيث وسائله ومناهجه في التأثير على الطبيعة، وفي استخراج الطاقة وتحويلها من صورة غير نافعة إلى أخرى نافعة، من منطلق تسخير الطبيعة والطاقة لخدمة مصالح الإنسان وتحقيق أغراضه، وكان للانفجار العلمي والثورة الصناعية ومن وراء ذلك الإصلاح الديني والسياسي والتربوي الداعي إلى تحرير العقل والإنسان الفرد والمجتمع من كل ما يعيق السير نحو التقدم والازدهار الدور في تفجير التكنولوجيا، وهو ما تميّزت به الحياة عامة في الغرب الأوروبي الحديث في شرق الأطلنطي وفي الولايات المتحدة الأمريكية في غربه.

* إن تخطي الغرب الأوروبي الحديث أزمت العصور الوسطى وامتلاكه شروط النهضة وأسباب القوة والتقدم جعله يبني حضارة قوية تقوم على الحرية والعلم والتكنولوجيا، هذه الحضارة مكّنته من الوصول إلى درجة عالية من الازدهار الاقتصادي والرفاهية المادية، ذلك لكثرة الإنتاج الصناعي وتنوعه وازدهار حركة التسويق والتجارة، وكان ذلك بفعل تطور وسائل النقل والاتصال، الحالة الجديدة التي عرفتها شعوب أوربا الحديثة وكذلك شعوب الولايات المتحدة الأمريكية غيرت مجرى الحياة لدى شعوب العالم أجمع، بفعل انتقال منتجات الحضارة الغربية الفكرية والعلمية والتكنولوجية وغيرها إلى تلك الشعوب مع حرص الغرب على ذلك، وفي خضم النماء الاقتصادي والازدهار العلمي والتكنولوجي الغربي تنامت العديد من التحولات والتوجهات، وارتبطت بالوعي التاريخي وبظروفه الفكرية والمادية، ومن أبرز هذه التحولات توجّه العولمة، الذي ارتبط بمفاهيم عدّة قام عليها الفكر الغربي الحديث، مثل الحرية، العقلانية، الليبرالية، العلمية، العلمانية والحداثة والتحديث وغيرها، هذه المفاهيم في إطار الظروف التاريخية للغرب الحديث ومصلحه قامت بأدلة العولمة حيث نشأت ونمت الظاهرة وأصبحت موضوعا يشغل الجميع، يشغل الغرب الذي يسعى إلى بسط سلطانه ونفوذه على العالم ودينه بقوة وحضارته المركزية ومن دون منافس، ويشغل الجهات الأخرى من العالم لحاجتها إلى التنمية وهي تفنقر إلى شروطها وتوجد في الأطراف خارج المركز. للعولمة فلسفتها وأيديولوجيتها ومنظورها للدفاع عنها وفرض هيمنتها، لكن العولمة بهذه الفلسفة وبممارساتها بلغت من التطرف الإيديولوجي الليبرالي ومن الاستبداد السياسي ومن الفساد الاقتصادي وغيره ما جعلها في قفص الاتهام.

1- نهاية التاريخ" محور فلسفة العولمة

* يمثل كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" للمفكر الأمريكي الجنسية الياباني الأصل "فرنسيس فوكوياما" البيان النظري الإيديولوجي والسياسي للنظام العالمي الجديد ولتوجه العولمة في عصرنا، ينطوي على الخلفية النظرية الفلسفية التي تستند إليها إيديولوجيا العولمة وسياستها الليبرالية في الاقتصاد وفي ممارسة السلطة والحكم وفي الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية عامة، ولم يكن الكتاب ذا طابع علمي يهدف إلى تعميق البحث والدراسة الإنسانية والاجتماعية انطلاقاً من الواقع الإنساني الحضاري في العالم المعاصر بقدر ما كان بياناً نظرياً وخطاباً سياسياً وإيديولوجياً، الهدف منه تبرير توجّه العولمة وتمير فرض النظام العالمي الذي تسعى القوى المهيمنة إلى فرضه على العالم أجمع، ومادام اليسار الإيديولوجي كان ولازال يعارض الرأسمالية والديمقراطية حتى بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وسقوط الاتحاد السوفيتي فإنه يعتبر الرأسمالية المتوحشة هي التي أنجبت العولمة وما ترتب عنها من تداعيات خطيرة على حياة الإنسان، هذا على الرغم من التحولات الكبرى السياسية والاقتصادية التي عرفتها الساحة الدولية، ومنها توجه دول المعسكر الشرقي الاشتراكية صوب الديمقراطية واقتصاد السوق والتعاطي بإيجابية مع العولمة والنظام العالمي الجديد، في الاتجاه المعاكس ينطلق فوكوياما في صياغة رؤية سياسية وإيديولوجية ذات أبعاد فلسفية تحدد مشروعية مرتكزات المرحلة التاريخية الراهنة ومحدداتها وموجهاتها، المرحلة التي تتسم بسيطرة منتجات النهضة الأوروبية الحديثة والمتمثلة في التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل وفي الرأسمالية والديمقراطية وفيما أفرزته الحرب العالمية الأولى والثانية وفي عجز اليسار عن الاستمرار، إن رؤية فوكوياما تقوم على كون الديمقراطية الليبرالية هي "نهاية التاريخ" الذي يتحرك ليس بفعل العنف بل بفعل الرغبة الشديدة للاعتراف، هذا المحرك الأساسي للتاريخ يُعرف في الرؤية "بالتيموس"، ونجاح الديمقراطية الليبرالية يتم بالتقدم العلمي والتكنولوجي، وينبغي التأسيس للعلم والتكنولوجيا في المجتمع لبناء الديمقراطية الليبرالية في الحياة السياسية والاقتصادية فينهض المجتمع بمشاركة الشعوب الفعلية في القرار.

* يعيب فوكوياما على بعض البلدان غير الديمقراطية التي استوردت التكنولوجيا من دون إنتاجها قائلاً: "العيب الوحيد البارز هو منطقة الشرق الأوسط التي ليس فيها أيضاً ديمقراطيات مستقرة، بينما تحوي عدداً كبيراً من الدول حيث المداخل الفردية تصل إلى المستويات الأوروبية أو الآسيوية. ولكن النفط يفسر كل شيء: فالمداخل النفطية سمحت لدول مثل العربية السعودية والعراق وإيران والإمارات العربية المتحدة أن تحصل الدلائل الخارجية للحداثة – سيارات، فيديوهات، طائرات حربية من طراز ميراج أو فانتم...دون أن تتلقى مجتمعاتها التحولات الاجتماعية الضرورية لبناء ونحت هذه الثورة".¹ الرؤية تعبر عن

قراءة للتاريخ والمجتمع والفكر في الغرب الأوربي وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وهي سلاح فكري فلسفي إيديولوجي إلى جانب القوة الاقتصادية والعسكرية للدفاع عن الوضع الذي تجسده العولمة وتعممه في العالم أجمع، من صور الدفاع عن العولمة ما جاء على لسان فوكوياما "كلما اقتربت الإنسانية من نهاية الألف الثالثة فإنه يُلاحظ أنَّ الأزمتين المزدوجتين للسلطوية والاشتراكية لم تتركاً في ساحة المعركة إلا إيديولوجيا واحدة محتملة ذات طابع شمولي: هي الديمقراطية الليبرالية، عقيدة الحرية الفردية والسيادة الشعبية. فبعد مائتي سنة من إطلاقها للثورتين الأمريكية والفرنسية، برهنت مبادئ الحرية والمساواة ليس فقط على أنَّها دائمة، بل أيضا أنها تستطيع أن تنبعث من جديد".² وبعد مرور عقد من الزمن على نظرية فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" يكتب مقالا صدر عام 1999 عنوانه "عشر سنين على نهاية التاريخ" يطرح فيه أطروحته السابقة ويؤكد عليها، فيقول: "لا شيء مما طرأ على السياسة العالمية أو الاقتصاد الكوني مدة عشر سنوات الأخيرة يشكك - حسب نظري - في صحة ما انتهيت إليه، ألا وهو أن الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق المنقذان للوجود بالنسبة إلى المجتمعات الحديثة".³

* إن فلسفة "نهاية التاريخ" تعتمد على فلسفة هيغل ومنظورها الجدلي، لهدف رئيسي هو الدفاع عن الديمقراطية الليبرالية من منطلق تقدير الذات والرغبة الشديدة في الاعتراف "التيتموس" وتفضيل الحكم الديمقراطي والتحرك في النضال ضد كل أشكال الهيمنة والتسلط والاستعباد، والوقوف في وجه كل ما من شأنه يعيق تنفيذ الطموح صوب الديمقراطية الليبرالية، وإذا كانت الجدلية الهيكلية على مستوى الفكرة والمثال هي محرك التاريخ في اتجاه صياغة مكتلة تاريخية تتجاوز ما خلفته الحداثة من مساوئ في الفكر والممارسة، ولا يتحقق اكتمال العقل والروح السياسي والفلسفي والديني في التاريخ إلا بأسلوب ينتهي بالوعي إلى المطلق المتعين في الزمان وفي المكان والمتمثل في نظام الدولة المكتمل الانسجام، "ومن الواضح أن هيغل يصف بجلاء نموذج الدولة الصناعية الغربية الحديثة، وإن كان تأثره بالنموذج النابليوني معروف، ومن ثم كانت الانتقادات العديدة التي وجهت له باتهامه بالتنظير للدولة الكليانية... فلا يمكننا إلا أن نفر بأنه وفق في ضبط طبيعة الدولة الغربية الحديثة، التي وإن كانت أول دولة أعلنت حرية الإرادة مبدأ تتأسس عليه الحركة الاجتماعية والسياسية، فإنها في الآن نفسه أكثر دولة سلطوية في التاريخ، وأبعدها تدخلا في قولبة أنماط المعرفة والسلوك الفردي والجماعي. إن ما يمكن القول دون تردد، إن هيغل كان أعمق نظرا وأكثر واقعية من تلميذه ماركس، الذي تنبأ بانهايار التناقض الطبقي وانتفاء شكل الدولة، بينما اكتفى فيلسوف المثالية الجدلية بضبط حركة الوقائع، وقدمها في قالب نسقي تحكمه غائية العقل المطلق في مسار تجسده التاريخي".⁴ تأثر فوكوياما بفلسفة التاريخ لدى هيغل التي تتميز بالمتانة الفكرية وبالصلابة في المفاهيم، ولم تقف هذه القوة والمتانة في فلسفة التاريخ الهيكلية في وجه الانحراف بها في نهاية التاريخ نحو كونها مجرد إيديولوجيا تحمي الدولة الديمقراطية الليبرالية الغربية الحديثة، لذا يعتبر العديد من المفكرين أطروحة نهاية التاريخ وما تنطوي عليه ليس بالأمر الجديد، فهي "لا تقدم رؤية جديدة، أو مفاتيح معقولة لحقبة انفصمت فيها الدلالة عن الحدث، وإثما هي أثر لأزمة نظرية متفاقمة، تحيل في ما وراء مقصده - فوكوياما - إلى أزمة انسداد آفاق المعقولة التي تنبع في سياق الحداثة من محددات الإنسانية النظرية (الذات المفكرة) والمقاييس الموضوعية في وصف الظاهرة (العلم التجريبي) والتاريخانية الغائية (مقولة التقدم). ولذا فإن "نهاية التاريخ" لا تنفصم عن موت الإنسان الذي أعلنه ميشال فوكو (أي نقوض مقولة الوعي في علاقة تمثله المباشر لموضوعه)، كما لا تنفصل عن "موت التجريبية الوضعية" التي أبرزت لمقاييس الإيستمولوجية زيفها وعمقها، ولا تنفصل كذلك عن انتكاسة التصورات التاريخانية التي قامت على أنقاضها المناهج الجديدة في كتابة التاريخ وقراءته".⁵

* لم يأبه فوكوياما بالتحولات المتسارعة في العالم في ظل العولمة والنظام العالمي وما سببته الأزمات على المستوى الاقتصادي والمالي، ليس في العالم المتخلف فحسب بل امتد تأثيرها السلبي إلى البلدان المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة، مما يطعن في مقولة نهاية التاريخ وهو الموقف الذي يرى البعض فيه الكثير من الطرافة، إن فوكوياما في "مقالته الأخيرة التي نشرها بصحيفة "لوس أنجلوس تايمز" بادر بالتأكيد إلى "إنني لا أرى في ما حدث في عالم السياسة الدولية، وفي الاقتصاد العالمي خلال السنوات العشر الماضية أي شيء يتعارض حسب وجهة نظري مع الاستنتاج القائل إن الديمقراطية المتحررة والنظام الاقتصادي الذي يتحكم في السوق هما البديل الوحيد النافع للمجتمعات الحديثة". في هذا السياق، لا ينظر إلى الأزمات المالية التي عصفت باقتصاديات البلدان الآسيوية وروسيا، ولا تراجع الديمقراطية، وانتشار الحروب الأهلية في مناطق شتى من العالم، شواهد تفند نظريته، وإنما يرى أن اتجاه العولمة (بالمنظور الرأسمالي الغربي) قد تجدر وتوطد، لسببين أساسيين: هما من جهة غياب نموذج تنموي بديل، وأثار الثورة التقنية للمعلومات من جهة أخرى".⁶

* يمثل التاريخ عند فوكوياما كغيره من المفكرين الغربيين المعاصرين إطار العقل والحركة في المجتمعات الغربية ومجتمع الولايات المتحدة، فيه يكون الزمن مليء بالإيجابية في الفكر والممارسة في حياة الناس، الإيجابية التي يصنعها العلم وتبنيها

الثورة التقنية، باعتبار العلم هو محرك التاريخ وليس حركة متطلبات الاقتصاد والسياسة والاجتماع البشري، والثورة العلمية التكنولوجية في مجال البيولوجيات كفيلة بضمان التغير الكيفي للعنصر البشري، وهو ما لم تقدر عليه الإيديولوجيا الشيوعية، يستمد فوكوياما خلفيته "النظرية لنموذجه المعدل من "الإيديولوجية العلمية" ولذا لم يكن من المستغرب أن يستند إلى نتائج البيولوجيا التي تشهد تطورات مذهلة، منذ أن بدأت تطورات تقنيات التصرف في "الجينات"، ووصلت مرحلة الاستنساخ. لم يفقد فوكوياما نزعة التفاؤل التي انبنت بدءاً على إيمانه باكتمال حركة التاريخ، وغدت تتأسس على المراهنة على تطور العلم والتقنية وما ينجم عنهما من تغير لشكل البشرية ذاتها التي ستنتهي ويحل محلها نموذج جديد من الإنسان، هو حصيلة انتقاء تتوفر فيه ميزات التفوق والسمو والكفاءة المطلوبة في العصر الجديد".⁷ إن ارتباط التطورات الكشفية والتجريبية والتقنية في العلوم البيولوجية بسائر مشكلات الإنسان أفرز نزعات إيديولوجية عديدة قادها مفكرون وعلماء وساسة، كانت متفقة في عمومها على تحكم العنصر العرقي الوراثي والجيني في مصادر وأساليب ومنتجات التقدم والتحضر، والأكثر مما تنتجه التطورات التقنية في البحوث العلمية البيولوجية الجينية في نتائج هذه البحوث والدراسات هو "إن تقنيات التصرف في الجينات وما توفره من فرص وإمكانات تحسن النوع البشري، تحمل خطراً ليس على التوازنات والتوازات المجتمعية والأخلاقية فحسب، وإنما تقود إلى ما هو أخطر، أي ظاهرة استبعاد جديد للبشر، بتحويلهم إلى مادة قابلة للتكيف والتصرف، أي تحويل العلم من مشروع السيطرة على الطبيعة إلى مشروع السيطرة على الإنسان... أن اتجاه العولمة وإن أضحي حقيقة قائمة اقتصادياً وتقنياً لا سبيل لإنكارها، فإنه لم يفض إلى مشروع ثقافي كوني، كما يتوهم ويتوهم الكثيرون، وإنما يتأسس على انقسام عميق بين حركية الوقائع والأحداث وفضاء المعقولة والدالة".⁸ "ومن دون النظر في فلسفة "هذا التوجه، فلا بد من الإشارة إلى أن الفكر الوضعي (كونت) قد ولد إيديولوجيات جديدة آمنت بقدرة العلم على تحقيق شتى مطامح البشرية. ولا تختلف "الإيديولوجية العلمية" الحالية التي يستند إليها فوكوياما عن هذا التصور، التي أصبحت تتحدد من جهة في نتائج الثورة العلمية، والتقنيات البيولوجية من جهة أخرى. إذ أن الثورة العلمية (المعلوماتية والاتصالية) هي التي ستفرض خيار العولمة، والتقنيات البيولوجية ستنشئ "الإنسان الأسمى" الجديد".⁹ والحقيقة أن التقدم العلمي والتقني لا يتحرك من تلقاء ذاته، بل تحركه المنازعات الإنسانية في الدين والأخلاق والإيديولوجيا وسائر المصالح، وبالتالي فمنازع الإنسان هي التي تحدد مسار العلم والتكنولوجيا في الحياة، إما نحو البناء والتعمير والتطور والازدهار، وإما نحو الدمار والخراب والظلم الاستبداد مثلما تحصده العولمة والنظام العالمي.

2- العولمة الهيمنة والاختراق وثقافة الموت

* إن التقنيات البيولوجية أو تقنيات الإعلام والاتصال والإشهار والمعلوماتية – تقنيات العولمة- على الرغم مما لها من أهمية ودور في صناعة التغيير، فإن التقنيات ليست في ذاتها عصباً رئيسياً ومرتكزاً أساسياً في صنع العولمة من دون المرتكزات القيمة للوجود الإنساني وهي الإيديولوجيا باعتبارها منظومة قيم تحدد منظور أكسيولوجي للحياة والوجود والعالم، المنظور الذي يعكس إيديولوجية العولمة وإستراتيجية العولمة، في إطار الاتجاه الشمولي الكوني في تطبيق الرأسمالية والديمقراطية التعددية والدفاع عن حقوق الإنسان وغيرها، وكل ذلك يغدو تزييفاً للحقائق وتكريساً للتناقض بين خطاب العولمة وواقعها ولثاماً يخفي علاقات القوة والهيمنة، "وإنه من المفارقات أنه في الوقت الذي كان فوكوياما يعلن فيه عن انتصار الليبرالية الديمقراطية على ماعداها من العقائد والمذاهب، سوى جيوب تاريخية باقية تمثلها الأصوليات الدينية والديكتاتوريات العسكرية، سيقضى عليها، كانت تحتل في المجتمع الأمريكي منازع أصولية سوف تنفجر لتصيب شظاياها مقولة "نهاية التاريخ" في الصميم. أي بينما يعلن "فوكوياما" نهاية التاريخ وحلول الدولة الديمقراطية الليبرالية، يعلن "هانتنتون" تصاعد الصراع بين الحضارات".¹⁰ أين محل مقولة نهاية التاريخ من صراع الإيديولوجيات وصراع الهويات الثقافية وصراع المصالح، هذا الصراع الذي لا نهاية له، ولا يتوقف عند مثالية أفلاطون وجمهوريته ولا عند الفارابي في مدينته الفاضلة ولا عند هيجل في المملكة البروسية وفي شخص ملكها، ولا في الحالة الوضعية حسب النزعة الوضعية لدى "أوغست كونت"، ولا عند الإنسان الأخير الأسمى حسب فوكوياما مهما بلغت العلوم من تقدم والتقنيات من تطور، فالتاريخ تحركه الطبيعة البشرية بمكوناتها المتعددة والمتداخلة المتشابهة.

* إن التاريخ "لا يمكن أن يتوقف طالما أن علم الطبيعة الحديث ليس له نهاية، بل إننا على أبواب تطورات علمية جديدة ستؤدي من حيث المضمون إلى القضاء على البشرية كما حالها اليوم".¹¹ ومقولة "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" من أبرز مرتكزاتها "الإيديولوجية العلمية"، ذلك بحسب التصنيف الثنائي الذي وضعه الفيلسوف "جورج كانغيلم" بالنسبة للإيديولوجية العلمية والنظرية العلمية، "فإذا كانت النظرية العلمية تتحدد إستمولوجياً داخل الإنتاج العلمي نفسه، وتنتمي إليه من حيث حصيلة المجهود الافتراضي التجريبي الذي تقوم عليه الممارسة العلمية، فإن الإيديولوجيا العلمية تنتمي إلى أفق التمثلات

والتصورات المجتمعية، أي مجال المتخيل وحقل المعايير، وبهذه الدلالة فهي وإن واكبت العلم، إلا أنها تتسم بميزاته، ولا تكتسب خصائصه".¹² وتبقى الإيديولوجية التي ارتكزت عليها مقولة "نهاية التاريخ" شبيهة إلى حد بعيد بالإيديولوجية الاشتراكية التي وعدت ببناء مجتمع الكمال في العدالة والمساواة الاجتماعية، ومحو التمييز والفقر والظلم والحيث الاجتماعي، فأثبتت الزمن أنها من أسوء الإيديولوجيات التي عرفها التاريخ، لم تورث سوى الاستبداد السياسي والفساد الاقتصادي والمالي ولم تنتج إلا الظلم والفقر لشعوبها التي غدت فريسة لهيمنة الديمقراطية الليبرالية والعولمة والأمركة المتصهنة المدعومة بالتقنية البيولوجية وتقنية الإعلام والاتصال والإشهار والتقنية الحربية النووية وغيرها، وهي سندات منظور "نهاية التاريخ" وأطروحة الإنسان الأسمى وما بعد البشر، كل هذا "يتوجه إلى العالم بإيديولوجيا في غاية الخطورة. أي ليس هناك سوى نموذج واحد يجب تطبيقه على كافة الجزئيات الصغيرة، و من ثم بناء نموذج مشابه لنموذج الأطراف- أطراف المركز. ويدعي فوكوياما أن المجتمع البشري سوف يبنى على أساس إلغاء الأفكار المسبقة، ولن يخضع لنشاطات الهندسة الاجتماعية. العولمة، وحدة العالم، ثورة المعلومات والاتصالات... منظومة متشابكة من المصطلحات التي تقوم على فكرة تطبيق نموذج الذرة على المجتمعات البشرية. ولكن أي مجتمعات بشرية؟ هل حان الوقت لتصحيح العالم ورسمه بناء على الأفكار المسبقة، وإنما طبقا للنماذج التي تطرحها العلوم الطبيعية وخاصة الفيزياء والهندسة البشرية؟ إن فوكوياما بمراجعته لنفسه يعلن بوضوح عن الوجه الحقيقي للعولمة من وجهة نظر "النواة". وإذا كان اكتشاف أمريكا قد مثل مفاجأة للإنسان، فإن العالم يعيش هذه المفاجأة الهمجية منذ القرن السادس عشر، فالمغامر الغربي الباحث عن الذهب، لم ولن يتوقف حتى الآن، فذلك الأمريكي الخليط، الذي تكون من الهجرات من جميع العالم، بخلفيات ثقافية متعددة، عرقية وإثنية غير دأبية إلا تحت إلحاح القوة والرعب والخوف. وبسبب كل هذا الخليط من العنف والتدين والهمجية والمغامرة الشعور بعقدة الذنب، تحاول أمريكا أن تجعل العالم على نموذجها".¹³

* أصبحت العولمة تعني الأمركة بكل ما تحمله الكلمة من دلالة على هيمنة الولايات المتحدة في العالم حتى على البلدان الغربية، وعبر عن ظاهرة محاولة أمركة العالم بما في ذلك بلدان الغرب الأوربي المرحوم محمد عابد الجابري قائلا: "ومن الحقائق البديهية في عالم اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان، النامية منها أو التي هي في طريق النمو، نجاحها في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، مشروط أكثر من أي وقت مضى بمدى عمق عملية التحديث الجارية في هذا البلد، عملية الانخراط الواعي، النامي والمتجذر، في عصر العلم والتقانة. والوسيلة في كل ذلك واحدة: اعتماد الإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها، وفي مقدمتها العلم والتقانة. وهذا ما نلمسه بوضوح في تخطيطات الدول الأوربية التي يدق في كثير منها ناقوس خطر "الغزو الأمريكي" الإعلامي الثقافي الذي يتهدها، في لغتها وسلوك أبنائها وتصوراتهم الجمعية، والذي يوظف أرقى وسائل العلم والتقانة- ومنها الأقمار الصناعية- في اكتساح مختلف الحقول المعرفية والخصوصيات الثقافية".¹⁴

* يعتقد البعض أن مقولة صدام الحضارات "لهنتغتون" تصطدم بمقولة نهاية التاريخ، في حين أن مصب المقولتين واحد هو التفوق والانتصار للحضارة الغربية انطلاقا من "التيوموس" أو من الصدام الحضاري، ووسائل وسبل الوصول إلى التفوق والانتصار هو التقدم العلمي والتكنولوجي والتفوق العسكري والديمقراطية الليبرالية، على أساس علاقة عدائية بين المركز والأطراف، يحددها استحواد المركز على القوة والتعسف في استعمالها، من منطلق الحق للقوي أن يعمل ما يشاء وليس ملزما بالنظر إلى الضعيف لأن العالم في ظل العولمة لا مكان فيه للضعفاء، عالم تنافس الأقوياء في السباق العلمي والتكنولوجي وفي السباق العسكري وفي السباق التجاري والاقتصادي، أية جهة تملك أكثر تقانة تطورا؟ وأية جهة تمتلك أقوى ترسانة عسكرية عدة وعددا؟ وأقوى ترسانة سلاح نووي وأكثرها تطورا؟. وانطلاقا من مقولة "صراع الحضارات" ومن الجانب الثقافي نجد أن الفكر الإنساني عامة لا يقبل قيم الثقافة الغربية التي كانت وراء تأسيس الحضارة الحديثة، إلا لكونها معبرا للمجتمع المدني وللرفاه المادي ولمشاركة فعلية وحقيقية للشعب في نظام الحكم وغيره، لكون هذه القيم مشتركة إنسانية حضارية وتاريخية، أما انحراف أي ثقافة عن توجهات هذه القيم وسلبها إنسانيتها وكونيتها تحت أي شعار وأي مبرر، فإن ذلك يلقي معارضة ويصطدم بالإخفاق، مثلما حال الثقافة الغربية والأمريكية الحديثة والمعاصرة، وقبلها ثقافات كثيرة جاءت على نمطها في الهيمنة والاختراقية، فالمدينة وهي مطلب حضاري تاريخي يصطدم بأنظمة عنف إمبراطورية العولمة والأمركة، فالعصر "هو العالمية المدنية ضد عولمة الخصوصية ونظامها السياسي العنفي المتمثل في الإمبراطورية بما هي توظيف لمبدأ القوة العارية. إذ تمثل الإمبراطورية استبدادا طاغيا، مستمدا من مخزون الحضارة اللاشعوري بما فيه من عنف الموروث الانثروبولوجي (حرب الكل ضد الكل)، موجها ضد حتمية المدنية، لذا فإن كلا من المدنية والإمبراطورية يتنازعان جناحي القوة. المدنية تتعاطى القوة من حيث إنها امتياز الاقتدار الإنساني، بينما لا يناسب الإمبراطورية لقيامها سوى احتكار طاقة العنف وصراع الحضارات الذي تسعى لحله لصالحها وحدها، كما تغدو هي

أقوى قوى الحضارات الأخرى المنافسة والمهشمة".¹⁵ ومن جانب آخر فإن الصراع الحضاري ليس دائما تتحكم فيه موازين قوة العنف كما يرى البعض، بل هو مشدود لفعالية غير فعالية العنف، هي فعالية "الاقتدار الإنساني الذي يبني لكل حضارة شخصيتها ويميزها عن سواها. ومن جدلية العلاقة بين العنف والاقتدار تتشكل صيغة الشخصية المفهومية للحضارة، التي تتعدى حدود الأمم وهوياتها الذاتية المتدرجة تحت دائرتها. ما تعنيه "نهاية التاريخ"، هو انتصار الاقتدار الإنساني على تاريخه الأنثروبولوجي- أي العنف والعنف المضاد- والحضارة التي تبلغ هذه النهاية هي المرشحة وحدها لحمل وتحمل عبء المدنية، وذلك بالانفتاح على الشرط الإنساني الذي ساهمت حضارته، كل منها حسب هويتها ومشروعها الثقافي، في تجارب الإعداد للسلام العالمي المستديم... فالعصر الراهن حقق تميزه عن عصور التاريخ السابقة، بإنجاز التواصل بين مختلف شؤون الروابط الإنسانية، إنه يفترض قابلية المشاركة من الجميع في صنع المدنية العاكسة لانفتاح الإنسان، ما فوق مبدأ الهويات المتناحرة، ما بين أقطابه المستقيمة والمستضعفة. والسؤال الذي ينبغي طرحه هو: هل أن عودة "ثقافة الموت" مع انبعاث الإمبراطورية سيجعل العنف وسيلة ليؤكد الإنسان المضطهد إنسانيته ضد القمع والهيمنة الذي يواجهها".¹⁶

3-منطق العولمة وأكسيوجيا الإنسان

* إن منطق مقولة "نهاية التاريخ" أو مقولة "صدام الحضارات" أو مقولة "العصور الوسطى الجديدة" وغيرها من المقولات التي تلتقي في فكرة واحدة، هي أنّ العولمة ومعها الأمركة ضرورة حتمية ومكسب حضاري وظاهرة تاريخية طبيعية، ارتبطت أساسا بالنماء الاقتصادي والتطور العلمي والتكنولوجي والديمقراطية الليبرالية، هذا المنطق يهدف إلى تشييء وتسليع كل شيء في العالم، بحيث يصبح الإنسان يُنظر إليه على أنه مجرد سلعة أو شيء في سوق العمل وفي أتون الإنتاج وفي سوق السياسة، وجوده الاجتماعي والثقافي والفكري والأخلاقي والديني أشياء وسلع، وجهده المبدول والمسخر في العملية الإنتاجية مجرد أشياء وسلع خاضعة لقانون السوق العمالية ولقانون العرض والطلب ولما يفرزه اقتصاد السوق، واختياره الحزبي والسياسي أو صوته الانتخابي هو مجرد شيء أو سلعة خاضعة للبيع والشراء، هو ما يحدث في بلدان العالم الثالث، إذ يتفاوض المرشحون في الانتخابات على سعر الصوت الذي تحدده درجة الفقر والفاقة، ومن وراء ذلك يُباع كل شيء حتى الكفر، فالفقر إذا نزل ضيفا

على بلد ما قال الكفر خذني معك، فالرأسمالية تتعاطى مع الإنسان في ظل العولمة على أنه سلعة ومجرد شيء، ومادام تركزت الرأسمالية على التقانة المتطورة فهي كذلك تعتبر الإنسان كالألة المنتجة بل في المجتمعات الفقيرة الإنسان أقل شأنًا من الآلة، وهذه أزمة فجرتها العولمة التي تفرض النموذج السياسي والاقتصادي والثقافي الغربي والأمريكي على العالم أجمع، وهو نموذج طابعه مادي صناعي تقني علماني، وإزاء تعاضل توجه العولمة نحو التسليع والشئنة، قامت الحركات المناهضة للعولمة لتعبر "عن غضبها إزاء هذا المشهد المعولم" حيث رفعت شعار: "إن العالم ليس بضاعة"، إذ لا يمكن اختزال العلاقات بين الشعوب في علاقات تجارية ومادية. إن هناك قضايا مصيرية جدية بأن تُطرح على بساط الدرس، من ذلك أين موقع الإنسان من العولمة؟ هل تساهم العولمة في تحسين مستوى عيشه والزيادة في رفاهيته؟ ألا تشكل العولمة تهديدا للهوية الثقافية والخصوصيات الفكرية للشعوب؟ أين مكانة القيم والأخلاق في خارطة العولمة".¹⁷ أمام هذه التساؤلات يتجه الوعي نحو التحرك للاحتجاج بسبب الشعور بالظلم المتزايد، خاصة أمام إيديولوجية تقوم على الشئنة والمادية والبضاعانية في التعامل مع بني البشر، دون مراعاة الكرامة الإنسانية، مما يولد مشاعر الكراهية والبغضاء التي عادة ما تنتهي بممارسة العنف بمختلف أشكاله في مواجهة الظلم والمهانة ووضعته تتم فيها العناية اللازمة بكل شيء إلا بالإنسان، "العولمة والنزعة التجارية سوف يعلمان هذه الوضعية ومعها يعلمان الاستعداد للعنف، في نفس الوقت الذي فيه تنفجر حركات الغضب. هكذا يتراءى شبح رجال ونساء فائضين عن الحاجة - حاجة السوق- والذين يساهمون في الناتج الاجتماعي أقل مما يستفيدون منه فيصبرون حملا ثقيلا أكثر منهم موضع مساعدة. أولئك الذين في هذه الوضعية، عندما لا يتوجهون إلى رد العنف الموجه إليهم، أو عندما لا يغرقون ببساطة في السلبية فإنهم يأخذون مصيرهم بين أيديهم. العالم الذي يسكنه فوكوياما ليس له مواقع أكثر من صورة جميلة على بطاقة، إنه لا يعكس، بأي حال من الأحوال، الوضع الذي يعيشه ملايين الناس، سواء في البلدان الصناعية أو في غيرها".¹⁸

* أمام مخاطر العولمة تُنظم المؤتمرات وتُعقد اللقاءات الدولية تؤيد العولمة وتناصرها، يُطرحها مفكرون ومثقفون وساسة من كل أنحاء العالم خاصة من الغرب الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية، "امتدح فوكوياما فضائل العولمة (اللوموند 08-12-99)، لكن تفكيره يهمل بعض النتائج الكارثية للظاهرة، والتي في البلدان الأكثر تصنيعا كما في البلدان المسماة العالم الثالث،

تقوي الفروق بين المستفيدين منها وبين ضحاياها... يجب على فوكوياما أن يتذكر أن مثل هذه المواجهات صاحبت تقريبا كل الإصلاحات الديمقراطية الكبرى، من تأسيس النقابات، والحصول على الحقوق المدنية، وتوسيع حق الانتخاب إلى المساواة أمام القانون. في الحقيقة يحتاج الأمر إلى جرأة كبيرة- ربما سداجة- لكي نصدق أنه بدون هذه المواجهات الاحتجاجية، تنتهي السلطوية بأن تغيب، وحقوق الإنسان سوف تُحترم، وإن اهتماما كافيا سوف يوجه لسياسة في صالح المرأة والبيئة. المشكلة هي أنه مع العولمة هناك منطقتا آخر ليس أبدا متفقا مع ما يقدمه لنا فوكوياما، بالنسبة لفوكوياما، العولمة قادت إلى توافق تدريجي للإحساسات الأخلاقية، وأنها سوف تنتج عاجلا أم آجلا، ملأ الفراغ، وردم هوة الاختلافات في العدالة والحقوق، إن ما يجعل هذا التوافق ممكنا هو وعود وفي نفس الوقت الأمل في نمو بلا حدود وبلا نهاية. الرأسمالية ربما كانت النظام، وإلى هذا اليوم، النظام الوحيد الذي أتاح مثل هذا النمو. لكن الديمقراطية، باعتبارها نظاما سياسيا، لم تواجه حقيقة أبدا، ولم تعترف بطبيعة مسؤولياتها نحو أولئك الذين هم آليات النمو تعاقبهم أكثر".¹⁹

* كثر خصوم العولمة والأمركة من المفكرين والساسة والمثقفين ومن العوام في الغرب الأوروبي ومن الأمريكان أنفسهم، وكثرت مع ذلك المظاهرات الاحتجاجية على إفرازات العولمة في جميع مجالات الحياة، هذا "شارل باسكوا"، وزير سابق ونائب في البرلمان الأوروبي ورئيس التجمع من أجل فرنسا- من اللوموند 08-12-99 – يقول في وصف المظاهرات الحاشدة المناهضة للاجتماع الوزاري للمنظمة العالمية للتجارة بالمدينة الأمريكية "سياتل" عام 1999، ومعبرا عن موقفه من الموضوع: "لكن المظاهرات العارمة في سياتل، والتي لا مثيل لها منذ حرب الفيتنام، وأكثر من هذا التصميم القوي، عند كل الوفود، على رفض العجلة الطاحنة المتمثلة في جعل العالم سلعة تجارية، النافية للشعوب، وللثقافات والمصالح الوطنية، والذي أرغم المنظمين على التخلي عن بدء دورة جديدة من التدمير. أمام تراكم الانسدادات بين الحكومات، وفي معمرة الاضطرابات والقتال المسيلة للدموع، لم يعد لائقا، ولا ممكنا، الزعم بأن الهدف المطلوب من مؤتمر "سياتل" إقامة نظام عالمي جديد. البرهان، هكذا قدم، على أن العولمة ليست ظاهرة نزلت من السماء، وأنها لا هي غير ممكن تقاديبها، ولا هي غير ممكن تراجعها، لقد ثبت أنها ليست إلا شكلا من الإيديولوجية الليبرالية المتطرفة، والتي تقوم على فرضية عجز الدول، والتي يراد فرضها على الشعوب باعتبارها أمرا واقعا... لم يحتج الأمر إلا إلى بضعة دقائق، لكي نلاحظ أن المفوض الأوروبي، مع أنه فرنسي الجنسية، قد قرر التحدث بالإنجليزية، أعني لغة السيد، دهشة الشعوب الفرنكوفونية كانت عظيمة، بقدر ما أن اللغة الفرنسية هي إحدى لغات ثلاث معتمدة للعمل في المنطقة العالمية للتجارة. بالطبع قادتنا لم يحتجوا".²⁰ وسار في خط "شارل باسكوا" كل من "وليام أبيتبول" و"بول ماري كوتو" وهما برلمانيان في البرلمان الأوروبي، مجموعة الاتحاد من أجل أوروبا الشعوب- عن اللوموند 30-09-1999- فجاء في مقالهما بعنوان "السيدة ضد العولمة" حول أوروبا والعولمة: "لقد اعتقد البعض أن أوروبا سوف توفر أطر ووسائل هذا الرفض، لكن العولمة كانت أسرع منها، مضافا إلى ذلك خلافات الدول الأعضاء، والتي شلت حركتها فيما هو أساسي، يمكننا التحقق قريبا أن العديد منها، وليس أقل من ذلك. لم تنو أبدا معارضة منطق العولمة. أرض أوروبا لم تعد إلا أداة العولمة وليس السد الذي كانت تنوي مواجهتها به، أرض أوروبا لم تعد تفعل شيئا غير نزع سلاح الدول، ولا تقدم بديلا عن الإرادة الوطنية. إنها مهووسة فقط بهذه الأيديولوجيا، أيديولوجيا تجاوز الوطنية، التي تظهر في هستيريا عصرنا، العولمة التجارية مثل الأممية الحمراء والبنية-الفاشية-التي كانت أساسا، نحن ننسى هذا أحيانا، أيديولوجيات متجاوزة للوطنيات. إذا كانت هناك فكرة، فكرة واحدة فقط، والتي عبرت عصرنا من أقصاه إلى أقصاه، ووصلت اليوم إلى منتهاها، فهي فكرة "دريو لاروشيل"، التي أطلقتها عام 1922، كصرخة انتصار في كتابه "مقاس فرنسا": "زمن الوطنيات انتهى"، هذه الفكرة ظلت قائمة متعددة الأشكال، جمعت في يوتوبيا مشتركة الأيديولوجيات الكبرى الثلاث في عصرنا: الشيوعية، الفاشية، والعولمة التجارية".²¹ إن خصوم العولمة تعاضمت شوكتهم وتقوى عودهم داخل الولايات المتحدة الأمريكية، عمال وطلبة ينددون بالأوضاع السيئة التي أفرزتها العولمة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والأمني، وبطالون بتطبيق ميثاق حقوق الإنسان وبعادلة عالمية أكبر وأوسع، "لقد بدأ المواطن الأمريكي يعي أن مصيره ربما لن يكون أفضل من مصير بلدان العالم الثالث، عندما تتخلى عنه شركاته، ويهجره الرأسمال بحثا عن ربح أكبر وتكاليف أقل، هربا من الديمقراطية إلى حيث لا ديمقراطية. دون أن يعني هذا ارتفاع مستوى الحياة في بلدان المهجر الرأسمالي، ولا انتشار الديمقراطية المزعم".²² يظهر مما سبق أن العولمة في أزمة، لم تمس الضعفاء والفقراء في العالم وحدهم، بل امتدت لتمس المواطن والشركات الاقتصادية والمؤسسات المالية في البلدان المتقدمة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، أزمة العولمة أثبتت أن البيان النظري والسياسي والإيديولوجي للعولمة – نهاية التاريخ والإنسان الأخير- قد جانب الحقيقة والواقع، ذلك للتناقض المفصوح بين خطاب البيان وخطاب العولمة وخطاب الأمركة وبين واقع المجتمعات في مختلف أنحاء العالم، المجتمعات التي تعاني قمع العولمة، العولمة التي تعمل على سحق شعوب الأطراف وتدميرها من كافة الجوانب، وتحرص على تسخير كل إمكانيات الشعوب المقهورة ذاتها لانصهارها في عولمة متوحشة شرسة لا مكان في ظلها للضعفاء.

خاتمة

* إنَّ التاريخ لم ينته كما تذهب أطروحة نهاية التاريخ وخاتم البشر، ولا الثقافات انصهرت في سياق الصدام الحضاري، فالتاريخ في حراك بدأ وبديان، والثقافات شامخة لم تهتز في وجه رياح العولمة والأمركة، وسلطة المركز لم تحل محل الدولة الوطنية والقومية المستقلة في الأطراف، وحقوق الإنسان التي ينادي بها الآخر في العالم هي جزء من أعمال التحرر والتنمية، ومن غايات الإسلام ومراميه قبل العولمة ومنذ أكثر من أربعة عشر قرناً، والتنوع الطائفي والثقافي والمذهبي من أشكال التعددية تعيش في إطار المساواة فيما للمواطنين وما يلزمهم من حقوق في وطنهم. من التحديات الفعلية الواجب على الدولة الوطنية التاريخية التراثية -دول العالم العربي والإسلامي- إدراكها نضج الوعي التاريخي الراهن الخاص واكتماله وربطه بالماضي، واستيعاب مرحلة الإبداع الأولى في عز الحضارة الإسلامية ووعي مرحلة محاولات النهوض الحضاري في العصر الحديث وإدراك مرحلة التنمية الراهنة والتحرر الجاري في إطار وطني وإقليمي، إطار يتم فيه الإبداع وتنبؤ المفاهيم والتصورات والرؤى والمناهج والغايات الخاصة من دون السقوط في أحضان العولمة والأمركة واعتبارهما ضرورة تاريخية كما يروج لذلك حماة الكونية ودعاة الكوكبية. إنَّ وصول عالم الأطراف إلى فرض الاستقطاب في معارك العولمة يستدعي "منولوجات" عميقة وإعادة بناء الذات بالحوار دوماً وبالنقد الذاتي وحشد القوى وتجميعها بعيداً عن التطرف ومنطق الإقصاء، ففي العالم العربي والإسلامي يحتاج الأمر إلى التوحد في جبهة تأخذ على عاتقها العمل من أجل تحقيق المشروع القومي العربي الإسلامي، المشروع الذي تنتفي فيه الاختلافات المدمرة لكل أمل في التوحد والنهوض والتحضر، مشروع يتجسد في الميدان، يحافظ على الذات ويصنع التنمية ويحقق الوحدة ويضمن الديمقراطية والعدالة، ويحرر الأرض-أرض فلسطين- من الاحتلال، وهذا من شأنه يقضي على الهروب من الوطن داخل الوطن بالحراك في مسار اليأس والقنوط واللامبالاة ونتائج ذلك وخيمة، كما يمنع الفرار نحو الخارج المفضي إلى الموت المحتم في الطريق أو خدمة العولمة.

الهوامش:

- 1- نقلا عن فيصل عباس، العولمة والعنف المعاصر، جدلية الحق والقوة، ص290.
- 2- فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة فؤاد شاهين، ص68.
- 3- فوكوياما: مقال "عشر سنين على نهاية التاريخ، ترجمة المنصف الشنوني، الثقافة العالمية، المجلس الوطني، الكويت، العدد 98، سنة 2000. نقلا عن فيصل عباس، العولمة⁴ - السيد ولد أباه: اتجاهات العولمة، ص 150.
- 5- المرجع السابق: ص 151. والعنف المعاصر، جدلية الحق والقوة، ص 293.
- 6- نقلا عن السيد ولد أباه، اتجاهات العولمة، ص152.
- 7- فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 292.
- 8- السيد ولد أباه: اتجاهات العولمة، ص158-159.
- 9- فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 293.
- 10- المرجع السابق: ص 296.
- 11- السيد ولد أباه: اتجاهات العولمة، ص152.
- 12- المرجع السابق: ص 153.
- 13- فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 299-300.
- 14- محمد عابد الجابري: العرب والعولمة، ص 307.
- 14- فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 309.
- 15- نقلا عن فيصل عباس، العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 309-320.

- ¹⁷- دافيد أبتر، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 34-35.
¹⁸- دافيد أبتر: أستاذ العلوم السياسية المقارنة والتنمية الاجتماعية في جامعة يال.
¹⁹- دافيد أبتر، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 31-32.
²⁰- شارل باسكوا، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 37-38.
²¹- وليام ابينبول، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 41-42.
²²- رجب بودبوس: العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 47-48.